الفصل السادس والثلاثون

الصفويون

والى هذا العهد تجب اضافة قوم من العرب أطلق المستشرقون عليهم لفظة (الصفويين) ، نسبة الى أرض (الصفاة)[1] . وهم أعراب ورعاة كانوا يتنقلون من مكان الى آخر طلباً للماء والكلأ . وقد دوّنوا خواطرهم أحياناً على الأحجار ، وتركوها في مواضعها ، ومنها استطعنا الإلمام بعض الشيء بأحوالهم وأخبارهم . وقوم تنتشر الكتابة بينهم على هذا النحو ، لا يمكن أن نتصورهم أعراباً على النحو المفهوم من الأعرابية ، بل لا بد أن نتصور انهم كانوا على شيء من الثقافة والإدراك .

واذا سألتني عن سبب اختيار المستشرقين لهذه التسمية واطلاقها على أصحاب هذه الكتابات ، فإنـي أقول لك : انهم أخذوها من اسم أرض بركانية عرفت بالصفا وبالصفاة ، تغطي قشرتها الخارجية حتى اليوم صخور سود تقول لك انها خرجت الى هذا المكان من باطن الأرض،وان براكين ثائرة مزمجرة غاضبة كانت قد قذفت بها الى ظهر الأرض فاستقرت في أمكنتها هذه ، ومن يدري ؟ فلعلها أصابت أقواماً كانت تعيش في هذه المواضع أو مارة بها فأهلكتها . وهي تسمية

---

١ E. Littmann, Thamud und Safa, In Abhandlung für die kunde des Morgenlandes, (1940), 25, I, M. Hofner, Die Beduinen in den Vorisamischen Arabischen Inschrriften, in L'antica Societa Beduina, (Studi Semitici 2), 1959, 53.

قديمة تعود الى ما قبل الاسلام ، بدليل انهـا وردت في نص يوناني على هذه الصورة : (Safathene)[1] وورود اسم إلـه عـرف بـ (زيوس الصفوي) (Zeus Safathenos) ، أي نسبة الى هذه الأرض[2] .

أما (الصفوية) ، فتسمية ليست بتسمية عربية قديمة ، وليست علماً على قوم معينين أو على قبيلة معينة ، وانما هي تسمية حديثة أطلقها المستشرقون على قبائل عديدة كانت تنتقل من مكان الى مكان طلباً للماء وللكـلأ ، لرعي ماشيتها التي تكوّن ثروتها ورأس مالها ، تراها يوماً في أرض النبـط ، ويوماً آخر في بلاد الشأم حيث كان الرومان ثم البيزنطيون يسيطرون . فنحن في هـذا الموضع لسنا أمام مملكة أو حكومة مدينة ، بل أمام قبائل عديدة حرفتها الرعي والغزو وكفى.

ومن نسميهم بالصفويين إذن ليسوا بقبيلة واحدة ولا بجنس معين ، وإنما هم قبائل متنقلة ، كانت تتنقل في هذه الأرضين الواسعة ، في أزمنة مختلفة متباينة . ويعـود الفضل الى الكتابات التي عثر الباحثون عليها في اعطائنا فكرة عن تلك القبائل المتنقلة ، وفي حصولنا على أسماء بعض تلك القبائل التي كان ينتسب اليها أصحاب تلك الكتابات .

وقد جمعت الكتابات الصفوية من أرضين واسعة ، تمتد من (حماه) في سورية الى نهر الفرات في العراق في الشرق ، والى فلسطين والمملكة الأردنية الهاشميـة فأعالي الحجاز ، وكلها كتابات شخصية في موضوعات متعددة ، ليس بينها وثائق تتعرض للمسائل العامة مثل القوانين والحروب بين الدول بتفصيـل وتبسط ، ذلك لأن الكتابات الصفوية هي كما قلت كتابات أفراد كتبوها تعبيراً عن أمور شخصية لا غير ، ومثل هذه الكتابات لا تتعرض لما يبحث عنه المؤرخ الا بقدر ، وهو قدر لا يقدم في الغالب للمؤرخ ما يبحث عنه ، ولهذا انحصرت فوائدها في مسائل

---

١ العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ٢٧) .

٢ العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ١٦٢) .

G. Ryckmans, Inscriptions Safaitiques, Extrait Du Museon, tome, 1-2, Louvain, 1951, Handbuch, S., 46, Ditlef Nielsen, Uber die Nordarabischen Gotter, in Mittei. der Vorderas. Gesellsch., Bd., 21, 1916, E. Littmann, Safaitic Inscriptions, Leiden, 1943, Annual Department of Antiquities of Jordan, Vol., I, 1951, P. 17.

وكذلك الاعداد التالية لهذه المجلة التي تصدرها مديرية الآثار في المملكة الأردنية الهاشمية .

أخرى ، في مثل الدراسات اللغوية والدينية وتطور الخطوط ودراسة أسماء الأشخاص والقبائل وما شاكل ذلك .

وانتشار هذه الكتابات وتناثرها في أرضين صحراوية ، أمر يلفت النظر ويدعو الى العجب من أمر الأعراب في ذلك العهد الذين كانوا يقرأون ويكتبون مع انهم أبناء بادية ، وقد عاشوا قبل الإسلام بزمان طويل ، ثم إن خطها يلفت اليه النظر أيضاً ، فهو خط عربي ، ولد من الأم التي نسلت الخط العربي الجنوبي ، وهو قريب من الخط الثمودي والخط اللحياني ، ويعني هذا أن العرب كانوا يكتبون قبل الميلاد بخط أود أن أسميه بالقلم العربي الأول ، أو القلم العربي القديم منه تفرعت الأقلام العربية المتنوعة فيما بعد ، فوجد ما نسميه بالقلم المسند وبالأقلام العربية الشمالية ، وذلك لظروف كثيرة لا مجال للكلام عليها في هذا المكان . وهو يدل على أن الصفويين وأمثالهم من الأعراب لم يتأثروا بالثقافة الإرمية مع قربهم منها واتصالهم بها ، وطغيانها على الثقافات الأخرى في العراق وفي بلاد الشام ، فبقوا مخلصين لقلمهم القديم ، فكتبوا به ، ولم يستعملوا قلم بني إرم كما فعل (أهل المدر) المقيمين في مدن العراق والشأم وقراهما . وكتبوا بلهجاتهم أيضاً ولم يكتبوا بلغة بني إرم كما فعل غيرهم من العرب الحَضَر .

وقد رأى (دوسو) (Dussaud) أن الصفويين كانوا يحاكون الجنود الرومان واليونان في تسجيلهم خواطرهم وذكرياتهم على الحجارة ، فقد وجد الباحثون أحجاراً دوّن عليها أولئك الجنود في أثناء أدائهم واجباتهم العسكرية في بلاد الشأم وعلى الطريق الرومانية ذكرياتهم وخواطرهم ونزولهم في تلك الأمكنة. ولكن وجود كتابات صفوية عديدة من القرن الأول قبل الميلاد يثبت ان الصفويين كانوا يدونون خواطرهم بهذا الأسلوب ، وذلك قبل شروع أولئك الجنود الرومان واليونان في تدوين خواطرهم على هذا الأسلوب ، وانهم كانوا يدوّنون خواطرهم هذه على الأحجار وبهذا الشكل لأن هذه الحجارة كانت هي ورق كتابة أهل البادية ، فكتبوا عليها كما يكتب أهل الحضر على الرق والخشب والورق وغيرها من وسائل الكتابة [1] .

ويرجع علماء الصفويات عمر أقدم الكتابات الصفوية الى القرن الأول قبل الميلاد.

---

١ Winnett, P. I.

أما آخر ما عثر عليه من كتابات ، فيرجع الى القرن الثالث بعد الميـــلاد ، على رأيهم أيضاً[1] . فما عثر عليه من الكتابات الصفوية ، هو من عهد تبلغ مدته زهاء أربعة قرون .

وقد أرخت بعض هذه الكتابات بحوادث محلية عرفت عند أصحابها ، الا انها مجهولة لدينا ، لذلك لم نستطع الاستفادة منها في تكوين رأي في زمن كتابتهـا . فقد أرخ بعضها بسنة وفاة قريب لصاحب الكتابة ، أو بوقت نزوله في المكان الذي كتب به الكتابة ، أو بوقت هربَه من الرومان أو بعد كذا من الأيام أو من السنين من رؤية قريب له أو وفاته ، ومثل هذه الحوادث، لا تفيد المتأخرين شيئاً ، ولا تساعدهم في تثبيت زمن تدوينها بوجه صحيح مضبوط . وأرخ بعضها بحوادث أعم ، الا انها ذكرت بأسلوب فوّت علينا معرفة زمان وقوع الحادث بوجه مضبوط ، فقد أرخت كتابة منها بـ (سنت نزز اليهد) ، أي (سنـــة الخصام مع اليهود)[2] . وهي سنة كان يعرفها صاحب الكتابة وأصحابه . أما نحن فلا نعلم من أمرها شيئاً، فقد خاصم العرب اليهود كثيراً في تأريخهم . فأية خصومة من تلك الخصومات قصد صاحب الكتابة . فإذا كان قد قصد ثورة العرب أهل اللجاة (Trachonitis) على (هيرود الكبير) الملك المكابي ، فهذه الثورة يجب أن تكون قد وقعت فيما بين السنة (٢٣ ق. م.) والسنـــة (١٤ ق. م.)[3] . أما اذا كان صاحب النص قد قصد خصاماً آخر ، فإننا لا نستطيع التكهن عنه من نصه هذا ، لما قلناه من تعدد الخصومات بين العرب واليهود .

وأرخت كتابة أخرى بزمن تمرد صاحب الكتابة على الروم ، وذلك سنة مجيء (الميديين) الفرس الى (بصرى) ، (ومرد على رم سنت أتى همذى بصرى)[4] وقصد بـ (همذى) (الماذويين) ، أي الميديين من الفرس . ولما كانت الأخبار لم تشر الى اكتساح الفرس لـ (بصرى) قبل سنة (٦١٤ م) ، ظن من عالج هذه الكتابة أن صاحبها قصد استيلاء الفرس عليها في ذلك الزمن ، أي في السنين الأولى من سني مبعث الرسول ، حيث غلبت الفرس على الروم ، كما أشار الى

---

١ Winnett, P. I.

٢ Winnett, P. 95.

٣ Winnett, P. 95, Josephus, Antiq., XVI, IX.

٤ F. V. Winnett, Safaitic, P. 19, 323, M43, Harding 37, T31.

ذلك القرآن الكريم . غير أن هذا الفريق عاد فأبدل رأيه ، لأنه وجد أن هـذا الرأي لا ينسجم مع نوع الكتابـة والأبحاث الاثاريـة التي دلت على ان الكتابة يجب أن تكون أقدم عهداً من سنة (٦١٤ م) ، ورأى لذلك أن استيلاء الفرس على (بصرى) يجب أن يكون قبل ذلك بكثير ، وقد يكون وقع في القرن الأول قبل الميلاد ، غير أننا لا نملك نصوصاً تأريخية تشير الى وصول الفرس الى هـذا المكان ، واستيلائهم عليه في ذلك الزمن . وهكذا نجد أن تلك الكتابة المؤرخة قد أوجدت لنا مشكلة ، لم نتمكن من حلّها بسبب الغموض الوارد فيهـا عن سنة استيلاء الفرس على بصرى[1] .

وطالما قرأنا في الكتابات أن أصحابها (نجوا من الروم) أو فروا من الروم، أو تمردوا على الروم وأمثال ذلك من تعابير . وقد قصدوا بالروم بلاد الشأم التي كانت في أيدي الرومان ، ثم انتقلت الى الروم ، وهم اليونان البيزنطيون . ولما كانت بلاد الشأم تحت حكم المذكورين ، عبّروا عنها بـ (رم) (روم) أي (الروم) (وبلاد الروم) .

لقد كان الصفويون بحكم نزولهم في أطراف بلاد الشأم على اتصال بالروم بـل اضطروا الى الخضوع لحكمهم والاعتراف بسيادتهم عليهم . والتوغل شمالاً وجنوباً في بلاد الشأم بحثاً عن الماء والكلأ وعن القوت ، كما اضطروا الى مراجعة قرى بلاد الشأم ومدنها للامتيار ولبيـع مـا عندهم من فائض من منتوج أيديهـم ومن حاصل حيواناتهم . وهذا مما يدفعهم الى التخاصم أحياناً مع موظفي الأمن الروم وحراس الحدود ورجال الجباية و (الكمارك) ، في شأن أمور الأمن ، أو أخذ حقوق الحكومة منهم ، فيقبض الروم على من يقاوم منهم،أو يتهرب من الأداء، أو يقتل ، أو يقوم بأعمال مخالفة ، فيلقونه في السجن أو يقتلونه ، ولهذا نجد بعض الكتابات وقـد سجلت حين هرب صاحبها من سجن الروم ، وعاد الى حريته . وهربه من الروم واستنشاقه نسيم الحرية ، معناه اللجوء الى البادية والاحتماء بها حيث يصعب على الجنود الروم الوصول اليها للقبض عليهم والاقتصاص منهم . والبادية حصن أمين للأعراب .

---

١ Winnett, P. 3, 19, BASOAR, Num : 122, P. 50, Die Araber I, S., 75, CIS 5, 4448, J. Pirenne I, 212.

ويظهر من هذه النصوص أن شأن الصفويين بالروم لم يكن يختلف عن شأن سائر العرب بهم وبأمثالهم من الدول الأجنبية مثل الفرس ، فهم مضطرون بحكم وضعهم الى التسليم لسلطان الدول الأجنبية ما داموا ضعفاء لا يستطيعون مقاومة الأعاجم ، فإذا تغيرت الأحوال ، وظهرت مواضع ضعف في الأجنبي ، اهتبل الأعراب الفرص ، فانقلبوا عليه حتى يرضيهم أو يظهر قوته . وهكذا كان الصفويون ينتهزون الفرص ، فمتى وجدوا ثغرة في سلطان الروم وموضع ضعف في حراسة حدودهم ، هاجموهم منها حتى ينالوا ما يبتغون من مغنم ، وقد ينقلب الحادث عليهم بالطبع ، لسوء تقدير في الموقف ، وهذا ما يحدث في كل غزو أو حرب ، وهو شيء طبيعي فقد ينتصر المحارب فيربح ، وقد يندحر فيخسر كل شيء .

ويلاحظ من الكتابات الصفوية أن أصحابها كانوا ينزعون نزعة شديدة الى تخليد أنفسهم وابقاء آثارهم وذكرياتهم بكل الطرق الممكنة ، فأرخوا بكل حادث كان معروفاً عندهم ، حتى بحادث ولادة ماشيتهم ، أو مقتل أحدهم ، أو فرض غرامة مالية على أحدهم ، أو سفر أحد منهم وبأمثال ذلك من حوادث صغيرة تافهة ، ولكنها مع ذلك وعلى الرغم مما يبدو عليها من سذاجة تدل على وجود نزعة قوية لديهم لتأريخ كل ما يقع عندهم وتدوينه ، ليطلع عليه غيرهم ممن يمر بالأماكن التي نزلوا بها[1] . هذا وما زال الأعراب وأهل القرى عندنا يسجلون حوادثهم على النحو المذكور من تسجيل التواريخ .

وللطابع الشخصي الذي تحمله الكتابات الصفوية ، لم نتمكن من الاستفادة منها من الوجهة السياسية والعسكرية ، فلم نعثر فيها على اسم ملك ، لا عربي ولا أجنبي ، ولم نعثر فيها على موضوع سياسي يشير الى الحالة السياسية التي كانت في العراق أو في بلاد الشأم أو في جزيرة العرب في تلك الأيام ، ولم نتمكن أيضاً من الخروج منها بأية فكرة عن نوع الحكم الذي كان يعيش فيه الصفويون: أكانوا في حكم ملوك ، على شاكلة عرب الغساسنة ؟ أم كانوا قبائل متنقلة خاضعة لسلطان الروم ، حين تكون في بلاد الشأم ، وحرة طليقة حين ترد البادية ؟

وقد وردت في الكتابات الصفوية أسماء قبائل ، منها : (بدن) و (بعر)

---

١ راجع النصوص الصفوية .

و (تر) ، و (هجدل) (هكدل) ، و (جر) (كر) و (حزن) و (حضى) ، و (حولت) (حوالـة) ، و (دمصى) و (سلم) ، و (صبح) ، و (ضف) ، و (عبد) ، و (عوذ) ، و (غر) ، و (فرث) ، (وقر) ، و (يحرب) ، و (همضر) ، و (املكت)[1] .

ومن القبائل الصفوية : (اشلل) ، و (بكس) ، و (جعبر) ، و (جوا)، و (حمد) ، و (حرم) ، و (حظى) (حضى) ، و (حمي) ، و (زد) (زيد) ، و (زهر) ، و (عذل) ، و (عمرت) (عمرة) ، و (فضح) ، و (مسكت) (ماسكة) ، و (معصى) (معيص) ، و (نمرت) (نمرة) (نمارة) (نميرة) ، و (هذر) (هذير) (هذار)[2] ، و (نسمن) أي (نسمان)[3] ، و (حمد) (حماد) (حميد)[4] .

وترد لفظة (ال) قبل اسم القبيلة في كثير من الكتابات الصفوية ، وتؤدي فيها معنى (آل) عندنا ، مثل : (ال تم) ، أي (آل تيم)[5] ، و (ال عوذ) بمعنى (آل عوذ)[6] و (ال ادم) (آل آدم)[7] ، و (ال حد) (آل حد)[8]. وهي بمعنى ان المذكور أو المذكورين من القبيلة المسماة،أو من العشيرة المذكورة ، أو من البيت المسمى .

وورود (ال) بهذا المعنى في النصوص الصفوية يدل على ان لغة هذه القبائل وهي قبائل عربية شمالية تشارك لغة القرآن الكريم في هذه الخاصية .

وقبيلة (عوذ) ورد اسمها في عدد من الكتابات الصفوية . وقد ورد في احداها ان حرباً كانت قد نشبت بينها وبين قبيلة أخرى ، اسمها (وعل) أو (ويل) أو (وائل)[9] . وقد يكون لاسم هذه القبيلة صلة باسم الإلـه (جد عوذ) .

---

١ Winnett, P. 4.
٢ Jordan, II, PP. 14.
٣ Littmann, Safa, S., 53, 55.
٤ Safa, S., 62.
٥ Annual Report of the Department of Antiquities of Jordan Vol., I, P. 26.
٦ Jordan, I, P. 27.
٧ G. Ryckmans, Inscriptions Safaitiques Au Britisch Museum et au Musée de Damas, Louvain, 1951, P. 88.
٨ Jordan, I, P. 24.
٩ Jordan, I, P 27.

وقد عثر على اسم قبيلة (نعمن) ، أي (نعمان) في بعض الكتابات الصفوية التي عثر عليها في (وادي حوران) بالعراق . ويرد (نعمان) اسماً لأشخاص ، ومنهم بعض ملوك الحيرة[1] .

وقد ورد اسم قبيلة في احدى الكتابات التي عثر عليها في العراق ، وهي قبيلة (ال صح) ، أي (آل صح) ، أو (آل صائح) ، أو (آل صيح)، أو (الصائح)[2] . وما زال اسم (الصائح) معروفاً في العراق ، وهو اسم عشيرة فقد يكون له صلة بهذه التسمية القديمة .

وقد أفادتنا هذه الكتابات من الناحية الجغرافية ، اذ قدمت الينا أسماء مواضع عديدة لا يزال بعضها يسمى بالأسمـــاء الواردة في تلك الكتابات . وقد يمكن في المستقبل دراسة الأسماء الأخرى لتثبيت مواضعها وتعيينها عـــلى مصورات الأرض (الخارطات) .

ومن المواضع التي ورد اسمها في الكتابات الصفوية ، موضع (رحبت) ، وهو (الرحبة) . وقد ورد في نص سجله رجل اسمه (حنن بن هعتق) ، (حنان ابن العاتق) ، أو (حنين بن العاتق) ، أو (خنن بن العاتق) ، وذكر انه (بن ال — رحبت) ، أي (من الرحبة) ، أو (من آل رحبة) ، وانه كتب كتابته هذه في السنة التي دار فيها قتال مع قبيلة (ال حمد) (الحمـد) أو (آل حمد)[3] . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن (الرحبة) هو اسم موضع. كما ان (الحمد) هو اسم موضع كذلك ، وان الذين نزلوا في هذين المكانـــين وفي أمكنة أخرى نسبوا أنفسهم اليها فقالوا : (آل رحبة) و (آل حمد) ، وذلك على نحو ما نجده في عربيتنا من ذكر (آل) في الانتساب،وان هذا معناه ان أولئك الأعراب الذين نزلوا في الموضعين انتسبوا الى المكانين ، فاستعملوا لذلك لفظة (ال) ، أي (آل) ، قبل الموضع ، فظهـــر الاسم (ال رجبت) (ال رجبة) وكأنه اسم قبيلة[4] .

---

١ مجلة سومر ، المجلد العشرون ، ١٩٦٤ ، الجزء الاول والثاني (ص ٢٧) من القسم الانكليزي .

٢ مجلة سومر ، المجلد العشرون ، السنة ١٩٦٤ ، الجزء الاول والثاني (ص ١٨، ٢٧) من القسم الانكيزي .

٣ العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ١٠٥) .

٤ العرب في سوريا (ص ١٠٥ وما بعدها) .

ولهـذا المظهر من التسميات والانتساب شأن كبير في موضوع دراسة أنساب القبائل ، إذ فيه برهان ودليل على أن الاقامة في موضع تكون سبباً للانتساب اليه، ثم لتحويل ذلك النسب الى اسم جدّ ، وأن ما يرويه أهل الأخبار في هذا الباب مثل انتساب الغساسنـة الى (غسان) ، وأن (غسان) اسم موضع ماء نزلوا عليه ، فدُعُوا به ، يجب أن ينظر اليه نظرة اعتبار ، لا رفض وازدراء . وفي أسماء القبائل العربية المدوّنة في كتاب الأنساب والأدب ، أو الواردة في الكتابات الجاهلية أمثلة عديدة من هذا القبيل .

ومن الأماكن التي ورد ذكرها في النصوص الصفوية : (بصرى) وقد ذكرت على هذه الصورة (بصر) ، و (هنمرت) ، (النمرت) ، أي (النمارة)، و (هشبكي) أي (الشبكي)[1] و (حجر)[2] .

و (حجر) موضع قـد يراد به (الحجر) المعروف في عربيتنا ، وهو (Hegra) و (Hegrae) عند اليونان واللاتين ، و (حجرا) و (حجرو) عند النبط[3] .

وورد اسم مدينة (تيا) أي (تيماء) في الكتابات الصفوية كذلك ، كالذي ورد في نص دوّنه رجـل اسمه (خل — ال بن شبب) أي (خليـل — ايل ابن شبيب) ، وقد تذكر فيه رجلاً اسمه (أبرش) ، وهو من أهل (تيماء)[4].

ولم يكن الصفويون كما يبدو بوضوح من كتاباتهم ومن صور الحيوانات التي نقشوها على الأحجار أعراباً ممعنين في الأعرابية عـلى نحو عرب البوادي البعيدين في البادية ، حيث يقضون حياتهم فيها ، فـلا يختلطون بالحضر ، ولا يمتزجون بالحضارة ، وإنما كانوا أشباه أعراب وأشباه حضر ، وربما كان تعبير (رعاة) خير تعبير يمكن اطلاقه عليهم ليميزهم عن غيرهم . فقد كان الصفويون أصحاب ماشية ، لهم ابل ، يعيشون عليها ، ويتاجرن بها ، ولهم خيل يركبونها، والخيل كما هو معروف لا تستطيع الحياة في البوادي القاحلة العميقة والرمال القليلة المياه ،

---

١ العرب في سوريا (١٠٦) .
٢ Jordan, II, P. 48.
٣ Jordan, II, P. 48.
٤ Enno Littmann, Zur Entzifferung der Safa — Inschriften, Leipzig, 1901, S., 51.

ولهم المعز والغنم والحمير والبقر، وهي من الحيوانات التي تحتاج الى رعي ومراعي[1]. ولذلك يجب أن يكون أصحابها من طبقة الرعاة . وقد كانت حياتهم حياة رعي، نجدهم في الشتاء في مكان ، ثم نجدهم في الصيف في مواضع أخرى قريبة من الجبال حيث يكون الجو لطيفاً والمياه كثيرة ، ليكون في استطاعتهم الابتعاد من حر الحرار ومن سَمُوم الأرض القاحلة في الصيف ، ولتستمتع ماشيتهم بجو لطيف فيه ما يغريها من خضرة نضرة ومن ماء عذب زلال .

ان في بعض هذه الكتابات تعبيراً عميقاً عن ذكاء فطري يعبر عن طراز حياة الصفويين ، فكتابة مثل : (ورعى همعز وولد شهى) ، ومعناها : (ورعت المعز وولدت الشياه) ، أو (ورعى بقر هنخل) ، أي (ورعت البقر في هذا الوادي) ، أو (وقف على قبر فلان وحزن) ، هي تعابير، وان بدت ساذجة مقتضبة لا يكتبها حضري ، غير انها تمثل في الواقع ذكاءً فطرياً عميقاً ، ونوعاً من التعبير عن حس أهل البادية أو أهل الرعي ، وهو حس مرهف فيه بساطة وفيه اقتضاب نبتا من وحي الصحراء البسيطة الممتدة الى ما وراء البصر على نمط واحد ، وشكل لا تغيير فيه ولا تبديل . وكتابات يكتبها أناس يحيون بعيدين عن حضارة المدن ، ويعيشون بين أشعة الشمس وضوء القمر في بيوت وبر أو شعر معز لا تقي ولا تنفع الا بمقدار ، لا يمكن أن تكون الا على هذا النحو من البساطة ، ولكنها بساطة ذكي يحاول بذكائه التعبير عن حياته تلك .

ونجد هذا الذكاء الفطري في الصور المرسومة للحيوانات ، فقد أراد مصوروها أن يعبّروا عن غرائزهم الفنية بصورة محسوسة ترى ، فرسموا صور حيوانات ألفوها ورأوها ، بصورة بدائية ، ولكنها معبّرة أخاذة . ورسموا بعض المناظر المؤثرة في حياتهم مثل الخروج للصيد ومعارك الصيد ، فنرى على بعض الأحجار فارساً وقد حمل رمحاً طويلاً،ونرى مشاة وقد حملوا أقواساً وتروساً صغيرة مستديرة لوقاية أجسامهم من السهام أو من الحيوان ، ونرى رجالاً يطاردون غزالاً أو ضأناً ، ونرى أناساً فرساناً ومشاةً يطاردون أسداً[2] ، ونرى غير ذلك من صور بدائية من هذا القبيل ، مهما قيل فيها ، فإنها صور رائعة لا يمكن أن يحفرها

---

١ العرب في سوريا (١٠٧) .
٢ العرب في سوريا قبل الميلاد (ص ١٠٧ وما بعدها) .

فنان بأحسن من هذا الحفر ، وهو في مثل هذا المحيط ، وليست لديه من آلات الحفر غير هذه الآلات .

والصور المنقوشة على الأحجار التي ترينا الصفوي وقد ركب حصانه معتقلاً رمحاً طويلاً ، هي صورة المحارب الفارس عند الصفويين ، وهي في الواقع صورة الفرسان الأعراب ، سلاحهم الرئيسي الرماح ، يطعنون بها خصمهم . وما زال البدو في بعض البوادي من جزيرة العرب يحملون ذلك السلاح التقليدي القديم ، يحاربون به خصومهم في المعارك القبلية البدائية . وأما المحارب الماشي ، فإنه يحارب بالقوس وبيده الترس كما يظهر من بعض الصور ، وهو لا بد أن يكون قد استعان بأسلحة أخرى بالطبع ، مثل السيوف والفؤوس والحجارة وكل ما تقع يده عليه مما يصلح أن يكون مادة للقتال والعراك[1] .

إن الصور التي تمثل الناس ، وهم يطاردون الغزلان أو بقر الوحش أو الأسد أو الحمار الوحشي ، هي صور مفيدة جداً تتحدث عن وجود تلك الحيوانات في تلك الأماكن وفي تلك الأوقات ، وعن طرقهم في صيدهـــا . وقد كانت لحوم بعض تلك الحيونات طعاماً شهياً لمن يصطادها ولآلهم وجماعتهم ، كما أن لوجـود صورة الحصان شأناً في اظهار أن الصفويين وغيرهم كانوا يعرفون الخيل في تلك الأزمنة ، وأن الحصان العربـي كان موجوداً يومئذ[2] .

وفي جملة ما عثر عليه من أسماء آلهة الصفويين اسم إلـه عرف بـ (إلـه هجبل) (إلاه هاجبل) (إلـه الجبل) ، وهي تسمية تدل عـلى أن عبـــدته كانوا من سكان جبل أو أرض مرتفعة ، ولهذا نعتوا إلههم بـ (إلـه الجبل) أو أن عبدته هؤلاء قد أخذوه من أناس كانوا قد خلقوا إلههم من ارتفـــاع أرضهم ، وصار إلهاً من آلهة الصفويين . وهو يقابل الإلـــه المسمى بـ (الاجبل) (Elagabal) وهو كناية عن الشمس، وكان يعبد في (حمص) (Emesa) فإن لفظة (Elagabal) تعني (إلـه الجبل) . وقد رمز اليه بـ (حجر أسود) وعبـاد الحجر الأسود كانت معروفة عند الجاهليين . وقد كان أهل مكة يقـــدسون الحجر الأسود في مكة ويتقربون اليه[3] .

---

١ العرب في سوريا (١٠٧ وما بعدها) .

٢ العرب في سوريا (ص ١٠٨) .

٣ F. Altheim, Aus Spätantike und Christentum, 1951, 28, Die Araber, I, S., 362.

ولا ندري من حلّ في محل الصفويين فأخذ مواطنهم ، ولِمَ اختفت كتاباتهم بعد عهدهم هذا ؟ هل كان الذين أخذوا مكانهم أميين لا يقرأون ولا يكتبون فكانت أيامهم صُمّاً بُكماً ؟ الذين أخذوا مكانهم هم أعراب مثلهم ، كانوا أقوى منهم ، لذلك تغلبوا عليهم على وفق سنة البادية . هذا جواب لا شك فيه. ولكننا لا نستطيع تحديد هوية أولئك الأعراب وتعيين أسماء قبائلهم ، كما أننا لا نستطيع التحدث عن سبب سكوتهم وعدم ترك آثار كتابية لهم تتحدث عن أيامهم وعن قبورهم وأصدقائهم وما شاكل ذلك من أمور الى زمن مجيء الاسلام. إن الغساسنة ، هم آخر من نعرف أنهم كانوا في هذه الأرضين وفيما جاورها وكذلك قبائل عربية أخرى مثل لخم وكلب،ولكننا لا نعرف أنهم تركوا كتابات تتحدث عنهم .

وبين أسماء الأشخاص المدونة في النصوص الصفوية أسماء تشبه أسماء أهل مكة والعرب الشماليين شبهاً كبيراً ، ويحملنا هذا على تصور ان ثقافة الصفويين عربية شمالية . ونجد هذا التشابه في أمور ثقافية أخرى،سأتحدث عنها في الأماكن المناسبة.

ومن الأسماء الواردة في النصوص الصفوية : (قصيو) ، أي (قصي) . وقد ورد اسم (قصيو بن كلبو) ، أي (قصي بن كلاب) في أحد النصوص . وكان من رجال الدين . وورد (قصيو بن روحو) أي (قصي بن روح) . و (قصيو بن اذينت) ، أي (قصي بن أذينة)[1] .

ويرى بعض المستشرقين ان الصفويين هم مثل سائر القبائل العربية الشمالية هاجروا من جزيرة العرب الى الشمال ، فسكنوا في منطقة (الصفاة) ، غير انهم لم يكونوا قد اندمجوا في أثناء تدوينهم كتاباتهم بالثقافة السامية الشمالية كما اندمج غيرهم مثل النبط ، بل كانوا لا يزالون محافظين على صلاتهم بالجزيرة ولا سيما بالعربية الجنوبية منها موطنهم القديم . وتعبّر عن هذه الصلة بعض الخصائص اللغوية التي ترجع على رأيهم الى أصلٍ عربي جنوبي ، غير انهم تأثروا بالطبع بمن اختلطوا بهم وبمن تجاوروا معهم من الساميين الشماليين أو العرب الشماليين،ويظهر أثر هذا الاختلاط على رأيهم أيضاً في الأسماء والكلمات والتعابير الخاصة التي نقرأها في هذه النصوص[2].

---

١ رنيه ديسو ، العرب في سوريا ، (ص ١١٦) .

٢ Handbuch, S., 48. ff., René Dussaud, Les Arabes en Syrie Avant L'Islam, E. Littmann, Götting. Gelberte Angeiger, 1908, S., 144.

قلت : إن كلمة (الصفويون) لا تعني شعباً معيّناً أو قبيلة معينة ، وإنما هي اصطلاح أوجده (هاليفي) ليطلق على الكتابات التي عثر عليها في مواضع متعددة من (اللجاة) و (حوران) ومواضع أخرى ، لذلك يجب ألا يفهم أننا نقصد أناساً تركوا لنا كتابات متشابهة كتبت بقلم واحد ، ليظهر أنهم كانوا بين البداوة والحضارة فلاحين ورعاة لهم قرى ومزارع ، وربما كانت لهم تجارات أيضاً ، غير أننا لا نعرف من أمرهم شيئاً كثيراً . فقد يكونون اذن من قبيلة واحدة ، وقد يكونون جملة قبائل ، وقد تكون لهم (امارة) لا نعرف من أمرها شيئاً ، وربما لا يكون لهم ذلك . وربما كانوا أتباعاً للسلطة القائمة في بلاد الشأم تتحكم فيهم بنفسها أو بواسطة أمراء أو سادات قبائل .

وقد يكون الصفويون أناساً وصلت أسماؤهم الينا ، وكتب المؤرخون عنهم ، ولكننا لا نعرف أنهم هم الذين نبحث عنهم ، لأننا أمام اصطلاح جديد مبهم، ظهر كما قلنا في القرن التاسع عشر ، ليست له حدود واضحة ولا معالم مرسومة، فلا ندري نحن في الواقع ما نريد ، قد يكون هؤلاء أسلاف غساسنة الشأم ، وقد يكونون غيرهم .